معلمه بصمت .. ويورثه لتلميذه بنظير هذا الصمت .. لم ينطق راوٍ عمن فوقه بكلمة .. ولكنه يتزكىٰ بمن فوقه .. ليزكّي من دونه .. فتبدأ مصابيح الإخبات من رسول الله صلىٰ الله ﷺ، مرورًا بأبي بكر الذي يتذكر القارئ حديث البخاري عنه حين ضايقته قريش فهمّ بالهجرة للحبشة، فلقيه ابن الدغنة أحد سادات العرب، فقال:

(أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي، قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يَخرُج ولا يُخرَج، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك، فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وآمنوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر، فليعبد ربه في داره، فليصل، وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاة، ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنىٰ مسجدًا بفناء داره وبرز، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكاء، لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن)[1].

فصلاة أبي بكر .. مجرد مشهده وهو يصلي ويرتل آيات القرآن بفناء داره شكّل ظاهرة تأثير دعوية قلبت عوائل قريش رأسًا

(١) البخاري (٢٢٩٨).

علىٰ عقب .. حتىٰ صاروا يتسللون يشاهدونه مبهورين ..

وفي صحيح البخاري إشارة إلىٰ شدة إقبال أبي بكر علىٰ صلاته وسكونه فيها (**وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته**)[1]

والذي تلقىٰ روحانية الصلاة وسكينتها من أبي بكر هو ابن الزبير الذي مرت أخباره، وأشاروا في نصوصهم لذلك كما في خبر مجاهد السابق (**كان ابن الزبير رضي الله عنه إذا قام في الصلاة كأنه عود، وحدث أن أبا بكر كان كذلك، قال: وكان يقال: ذاك الخشوع في الصلاة**)[2]، وقال ابن حجر في الفتح «سنده صحيح»، فهذا يكشف أن هذا السكون الشديد في الصلاة حتىٰ كأنه وتد أو عود، أنه تلقّاه ابن الزبير من أبي بكر ..

وأما عطاء ابن أبي رباح الذي أخذ هذه الحياة السلوكية في الصلاة من ابن الزبير، وابن جريج الذي أخذها من عطاء، فلهما سويًا أخبار تدل علىٰ عجائب صلاتيهما وكيف تأثر التلميذ منهما بشيخه، إذ يقول ابن جريج:

(**كان عطاء بعد ما كبر وضعف يقوم إلىٰ الصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة وهو قائم، لا يزول منه شيء ولا يتحرك**)[3].

يا خيبة أيامي .. ويا حسرةً تقضمني الآن وأنا أقرأ هذا الخبر

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٤).

(٢) السنن الكبرىٰ للبيهقي (٣٥٢٢).

(٣) أبو نعيم، حلية الأولياء، تحقيق سامي جاهين، دار الحديث، ص(٣/ ٨٠).

.. هذا الرجل بعدما كبر سنه ورقّ عظمه يصلي بالمئتين من سورة البقرة في ركعة واحدة .. والمئتان من سورة البقرة تبلغ ثلاثين وجهًا من القرآن .. أيْ جزء ونصف بالضبط في ركعة .. وهو ساكن مخبت لا يتحرك .. وهذا بعدما طعن في السن! فكيف كان عطاء يا ترىٰ يصلي أيام فتوته وشبابه؟!

ولفت انتباهي في هذا الخبر تنبيه ابن جريج علىٰ سكون عطاء في صلاته «وهو قائم، لا يزول منه شيء، ولا يتحرك» وهذه الحال هي المروية عن شيخه ابن الزبير عن أبي بكر.

وهكذا كانت صلاة ابن جريج نفسه، فانتقل هذا الخشوع والإطراق إليه، وقد وصفه تلميذه الإمام الحافظ عبد الرزاق فقال:

(ما رأيت أحسن صلاة من ابن جريج، كان يصلي ونحن خارجون، فيُرىٰ كأنه اسطوانة، وما يلتفت يمينًا ولا شمالًا)(١).

يا الله .. إنه ذات التشبيه الذي يصوّر السكون والإخبات في صلاة شيوخه في سلسلة الخشوع ..

وقد أثّر فيّ كثيرًا تعليق قصير جدًا كأنما هو دمعة لا عبارة .. سحّها ابن جريج رحمه الله لما تعجّب بعضهم من صلاته فالتفت بتعقيب قصير كأنما نكأ فيه جرح الذكريات عن شيخه عطاء بن أبي رباح .. النموذج الذي تلقىٰ عنه الصلاة .. حيث يقول

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٢٨٨٤).

ابن عيينة: (**قلت لابن جريج: ما رأيت مصليًا مثلك، فقال: لو رأيت عطاء؟!**)[1].

لا أدري لماذا شعرت أنني فهمت من كلمة ابن جريج «لو رأيت عطاء؟!» أبعد مما يجب أن تعنيه .. حين كنت أقرأ هذه العبارة لم أستطع أن أدفع عن نفسي إحساسًا غامرًا أن ابن جريج كان يزفر وهو يقولها .. «لو رأيت عطاء» ..

ومصدر هذا الشعور الذي كان يغلب علي وأنا أقرأ عبارة الإمام ابن جريج إنما هو نمط العلاقة بينهما، فإن ابن جريج تأخر طلبه العلم كما ذُكِر في ترجمته[2]، وذكروا أن سبب ذلك هو ما قاله عن نفسه: (**كنت أتتبع الاشعار الغريبة والأنساب، فقيل لي: لو لزمت عطاء؟ فلزمته ثماني عشرة سنة، أو تسع عشرة سنة إلا أشهرًا**)[3]، وبسبب هذا الانكباب علىٰ شيخه عطاء ابن أبي رباح، قال ابن المديني: (**ما كان في الأرض أحد أعلم بعطاء من ابن جريج**)، فهذه العلاقة العلمية العبادية التي جاءت بعد ظمأ يستحيل أن تكون علاقة فاترة الوجدان .. ولذلك كنت أشعر أن ابن عيينة لما قال لابن جريج: (ما رأيت مصليًا مثلك) فرد ابن جريج بتعقيبه

---

(١) أبو نعيم، **حلية الأولياء**، تحقيق سامي جاهين، دار الحديث، ص(٣/ ٨١).

(٢) الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق محمد زغلول، دار الكتب العلمية، ص(١/ ١٦٣).

(٣) ابن أبي حاتم، **الجرح والتعديل**، نشرة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ص(٥/ ٣٥٦).
وفي العبر للذهبي «الأشعار والعربية»، وفي غيرهما «الأشعار العربية»، ويظهر في النسخ تصحيف، وتبدو الثالثة بعيدة جدًا، وأظن عبارة العبر أصح الثلاثة، والله أعلم.

القصير: (لو رأيت عطاء؟!) كنت أشعر أن جواب ابن جريج هذا يخفق بحنين الذكرىٰ لشيخه وعبادته وذكرىٰ حسن صلاته وطولها وسكونها وتؤدته فيها ..

هذا الإسناد السلوكي الذي يتناقل سكون الصلاة منذ ابن جريج إلىٰ أبي بكر متلقىٰ عن رسول الله ﷺ.. وشواهد السكون والخشوع والإطراق في صلاة رسول الله ﷺكثيرة جدًا .. بل كل صفات صلاته لوحة باتجاه الخشوع والإخبات لله .. وسنتناول هاهنا أحد هذه المشاهد من صلاة رسول الله ﷺ .. وهو مشهد «الأنبجانية» ..

فقد كان من رجالات قريش «أبو جهم بن حذيفة» وهو من بني عدي، شيخ نسّابة معمر، وقد تأخر إسلامه إلىٰ يوم الفتح، وأهدىٰ للنبي ﷺ «خميصة»، والخميصة كساء من لبس الأشراف في أرض العرب، ويكون فيها أعلام، وهي الخطوط التي تكون في طرفي اللباس، وتكون غالبًا بلون مغاير، فهي زي راقٍ يناسب أن يكون هدية، فلما لبسه النبي ﷺ وكبّر للصلاة نظر في الأعلام التي علىٰ طرفي الكساء، فلما سلّم ﷺ، جاء متضايقًا لأهله وطلب منهم أن يعيدوا «الخميصة» إلىٰ أبي جهم، ويطلبوا من أبي جهم كساءً آخر تطييبًا لقلب أبي جهم حتىٰ لا يقع في قلبه شيء من رد هديته، والكساء الآخر هو «الأنبجانية» وهو كساء ليس فيه أعلام وهو أقل من الخميصة ثمنًا وقيمة عند العرب .. كما روىٰ هذه القصة البخاري عن عائشة:

(أن النبي ﷺ صلىٰ في خميصة لها أعلام، فنظر إلىٰ أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «اذهبوا بخميصتي هذه إلىٰ أبي جهم، وأتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني آنفًا عن صلاتي». وقال هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قال النبي ﷺ: «كنت أنظر إلىٰ علمها وأنا في الصلاة، فأخاف أن تفتنني»)[1].

وفي رواية في مسند الإمام أحمد أنهم راجعوا النبي ﷺ في هذا الطلب لعله يعدل عنه: **(فقالوا: يا رسول الله، إن الخميصة هي خير من الأنبجانية، قال: فقال: «إني كنت أنظر إلىٰ علمها في الصلاة»)**[2].

فانظر كمال اهتمام النبي ﷺ بصفاء باله وفراغ ذهنه أثناء الصلاة .. حتىٰ أنه نظر مجرد «نظرة» إلىٰ خطوط الزينة في ثوبه فأخرج الكساء عن ملكه .. ورده لصاحبه .. فماذا يقول أقوام لم يعرض لقلوبهم نظرة في لباس .. بل منذ تكبيرة الإحرام تنطلق قلوبهم في رحلة سياحية في أودية الدنيا كلها ..

وهذه القصة عن خميصة أبي جهم وأعلامها تشبه القصة الأخرىٰ في البخاري نفسه، عن قرام عائشة، والقرام هو ضرب من النسيج فيه نقوش ويتخذ ستارة في البيوت، وفي البخاري عن أنس: **(كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها، فقال النبي ﷺ**

---

(١) صحيح البخاري (٣٧٣)، صحيح مسلم (٥٥٦).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٤١٩٠).

«أميطي عنا قرامك هذا، فإنه لا تزال تصاويره تعرض في صلاتي»[1].

حياتهم كلها .. من الأزياء .. وأثاث المنزل .. يتحكم فيها مطلب الخشوع ..

حين كنت أطالع سلسلة الخشوع والإخبات والسكون هذه من ابن جريج إلىٰ رسول الله ﷺ؛ انساق التفكير إلىٰ حساب المسافة بين صلاتنا وصلاتهم .. لطالما رأيت في نفسي وفي كثير من إخواني من حولي حركات في الصلاة تناسب تمطي المرء علىٰ أريكة استرخاء، لا حال قيامٍ بين يدي من له مقاليد السموات والأرض ..

كم فينا من مصلٍ يتسلىٰ بقنص شوارد شاربه بأسنانه ثم يسلّها منها .. وشابٌ يشمخ رأسه ثم يهزه لتتطاير خصلات لمّته إلىٰ الوراء .. وآخر يفحص زوائد الأظفار في الصلاة فإما كسر الزائد بإصبعه أو لقمه أسنانه لتقرض ما زاد .. وفينا من يطوف بيده علىٰ كرشه كالمتفقد لتحولات حجمها واستدارتها ويوهم نفسه أنها صغُرت ..

بل إذا شئت أن تتأكد أننا ننشغل في صلاتنا أكثر مما ننشغل في مجالسنا فتأمل كيف تجد المرء يجلس في عمل أو مناسبة ثم إذا صلىٰ تفطن لبقعة خفية في ثوبه لم يتفطن لها أثناء جلوسه في تلك

---

(١) صحيح البخاري (٣٧٤).

المناسبة .. عيوننا الغافلة في الصلاة ليست في موضع السجود بل هي تطوف في ملابسنا وما حولنا تبحث عن لهو ..

وكم فينا من ينظر لساعة الحائط في المسجد مرارًا ثم يعيد حساب الوقت المتبقي بين انقضاء الصلاة ووصوله لمشواره الذي يخطط له .. كل هذا الانشغال والحركة بين يدي من ذلّت لكبريائه السموات والأرض ..

بل كم فينا من يحسب المتبقي من الراتب بالقياس إلىٰ المتبقي من نهاية الشهر بشيء من القلق وهو بين يدي الرزاق سبحانه الذي هو أغنىٰ وأقنىٰ ..

وكم فينا من يبدأ التكبير وقد فسر كمه عن ذراعه من آثار الوضوء .. ثم يستكمل ترتيب كمه أثناء الصلاة لا قبلها .. وفينا من يشعر أنه بحاجة كل هنيهة أن يجول بيده علىٰ جنبيه يتحسس محفظته ومفاتيحه وأغراضه الشخصية التي يرجح بها جيبه ..

بل فينا من يستخرج جواله من جيبه كالمظهر إصماته وهو يسترق النظر هل من رسائل جديدة؟ أو ليختلس اسم المتصل عسىٰ أن لا يكون من يترقب اتصاله .. يظهر لمن بجانبه الخشوع ويغفل عن نظر الله .. ألا نخشىٰ أن يدخل هذا تحت قول الله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقول الله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾، وقول الله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ ..

كنت أقارن هذه المشاهد الاجتماعية التي أراها في نفسي

وفي كثير من إخواني من حولي بما طالعته في سلسلة الخشوع منذ ابن جريج وانتهاء برسول الله ﷺ .. تمر أمام ناظري تلك الأوصاف: كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك ..كأنه عود .. كأنه خرقة .. كأنه اسطوانة .. وأشعر بالخجل يكسر عيني .. بل كنت أقول في نفسي لو رآنا هؤلاء فكيف سيصفون صلاتنا؟ ما التشبيه الذي سيطرأ علىٰ أذهانهم ليشبهونا به؟

وإذا تحدّث أهل العلم عن السكون والتمهل والتؤدة في الصلاة يذكرون قول الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢] وقول الله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] ونحوها من النصوص ..

ولكن ما معنىٰ «الخشوع» في هذه الآيات؟ الحقيقة أنك تجد كثيرًا من أهل العلم في كتب التفسير والسلوك حين يقصدون لتفسير كلمة «الخشوع» في مثل هذه الآيات القرآنية يذهبون للغة العرب يفتّشون فيها عن معنىٰ «الخشوع»، وهذا إجراء علمي معتبر وتقليد مألوف.

ولكن للبحر أبي العباس ابن تيمية طريقة أخرىٰ تفرّد بكمية وكثافة حضورها في تفسيره لألفاظ النصوص، يمكن تسميتها «مبدأ الاكتفاء النصي الذاتي» .. وخلاصة هذا المبدأ أن ابن تيمية يرىٰ أن معرفة معنىٰ الألفاظ في النصوص الشرعية لا يفتقر إلىٰ الرجوع لغريب اللغة والشعر ومعاجم متن اللغة ونحوها، بل النصوص

والآثار نفسها تتضمن تفسيرها بنفسها، ويحتج بأن النص الإلهي يبيّن ذاته بذاته.

والمبدأ المعرفي الذي بنىٰ عليه ابن تيمية ذلك هو كما يكرر: «أن النبي بلغ ألفاظ القرآن ومعانيه، لا ألفاظه فقط»[1]، ويجادل ابن تيمية في الثبوت والدلالة كليهما، فيقول في الثبوت: **(اللغة المستفادة من الشعر والغريب الذي يعلمه الآحاد دون ما يستفاد من نقل أهل الحديث . .)**[2] ويقول في الدلالة: **(ثم لو ثبت النقل عن العربي الشاعر أو الناثر، وعلم أنه أراد معنىٰ بذلك اللفظ، لكان ذلك لغة له قد أرادها باللفظ، فلم يكن إثبات اللغة بمجرد هذا الاستعمال أولىٰ من إثباتها بالاستعمال المنقول في الحديث والآثار)**[3]، بل إنه صعد بهذا المبدأ درجة أعلىٰ وقال **(لا حاجة بنا مع بيان الرسول لما بعثه الله به من القرآن أن نعرف اللغة قبل نزول القرآن . . ، والعلم بمعاني القرآن ليس موقوفا علىٰ شيء من ذلك؛ بل الصحابة بلغوا معاني القرآن كما بلغوا لفظه)**[4].

وقد عارض ابنَ تيمية في هذا المبدأ وناقشه بعضُ علماء اللغة الذين عاصروه ومنهم العملاق أبو حيان الأندلسي في خطبة

---

(١) انظر: ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(١٣/ ٤٠٢).

(٢) ابن تيمية، **جواب الاعتراضات المصرية**، تحقيق محمد عزير شمس، نشرة مجمع الفقه، ص(١٠).

(٣) المصدر السابق، ذات الصفحة.

(٤) ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(٧/ ١٢٤).

تفسيره[1]، وللمسألة ذيول وقيود ونكات شيّقة ليس هذا الموضع المناسب لعرضها.

علىٰ أية حال .. طبقًا لهذا المبدأ، أعني تفسير النص بالنص، أو التفسير الذاتي للنصوص، أو مبدأ الاكتفاء النصي الذاتي: كيف فسّر ابن تيمية معنىٰ «الخشوع» الوارد في الآيات السابقة؟

أي أنه إذا كنا لن نذهب أولًا للنصوص العربية القديمة المنقولة من شعر ونثر نبحث فيها عن معنىٰ «الخشوع» وإنما سنبحث في النصوص الشرعية ذاتها عن معنىٰ «الخشوع»، فما هو معنىٰ «الخشوع» إذن؟ وكيف نصل لهذا التفسير؟

طبّق ابن تيمية مبدأه هاهنا بطريقة استنباطية مركبة من عنصرين، عنصر «الوجوه والنظائر» المعروفة، أي تتبع موارد اللفظ في النص نفسه اشتراكًا وتواطؤًا، وعنصر «التعريف بالمقابلة»، فلما جاء لقول الله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ قارنها بالآية الأخرىٰ التي قال الله فيها: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾.

لكن يا ترىٰ أين وجه الدلالة في الآية الأخرىٰ علىٰ معنىٰ «الخشوع»؟ ما علاقة «خشوع الأرض» المذكور في الآية الأخرىٰ بـ«خشوع الصلاة» المذكور في الآية الأولىٰ محل التفسير؟

---

(١) أبو حيان، **البحر المحيط**، تحقيق عادل عبد الموجود وزملائه، دار الكتب العلمية، ص(١/ ١٠٤).

حسنًا . . تأمل كيف استنبط ابن تيمية من الآية الأخرىٰ معنىٰ «الخشوع»، يقول أبو العباس عليه شآبيب الرحمة في رسالته المشهورة القواعد النوارنية:

(فالخشوع يتضمن السكينة والتواضع جميعا . . ، وقال تعالىٰ «ومن آياته أنك ترىٰ الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت»، فأخبر أنها بعد الخشوع «تهتز» والاهتزاز حركة، وأنها «تربو» والربو الارتفاع، فعُلِم أن الخشوع فيه: سكون وانخفاض)[1].

فابن تيمية هاهنا يقول دام أن الآية ذكرت خشوع الأرض، ثم ذكرت الآية الحال التي تخالف هذا الخشوع وهما الوصفان: الاهتزاز والربو، والاهتزاز هو الحركة، والربو هو الارتفاع، أدركنا أن الخشوع سيكون بضد ذلك، فيكون الخشوع يتضمن الوصفين المضادين وهما: السكون وعدم الحركة، والانخفاض وعدم الرفع.

وواصل ابن تيمية وذكر خمسة نصوص أخرىٰ استنبط منها أيضًا معنىٰ «الخشوع»، دون الافتقار لمعاجم اللغة علىٰ طريقته المعروفة في التفسير.

لكني أريد أن أسألك: بالله عليك ألم تجد حلاوة في حلقك وأنت تقرأ استنباطه معنىٰ آية خشوع الصلاة من آية خشوع الأرض؟

---

(١) ابن تيمية، **القواعد النورانية**، تحقيق د.أحمد الخليل، دار ابن الجوزي، ص(٧٤).

وأحب التنويه أن منبع التفرد التيمي هاهنا ليس في أصل اعتبار مبدأ التفسير النصي الذاتي وإنما في مزيد الحفاوة به وتفعيله في التطبيقات العقدية والفروعية والإلحاح المستمر علىٰ استحضاره، وهذا مستوىٰ معرفي مقرر، وهو أن الأئمة قد يشتركون في أصل العمل بقاعدة شرعية ويتفاوتون في مستوىٰ حضورها، ككثافة حضور الذرائع في فقه مالك وكثافة حضور قول الصحابي في مدرسة الحديث وكثافة حضور القياس في مدرسة العراق ونحو ذلك، وإن كان أصل هذه كلها حاضر عند مخالفهم.

حسنًا .. هذه هي الحال التي يريدها الله منا في الصلاة: أن نكون في سكون فلا تطوف أطرافنا وتتحرك ونعبث، وأن نخفض رؤوسنا ونطرق متذللين لمن نقف بين يديه .. وهذان الوصفان هما من أجل معاني الخشوع الذي عظّمه القرآن وربط الفلاح به .. والحقيقة أن هذين الوصفين (السكون) و(الإطراق) كليهما جاء النص عليهما في الصلاة في الصحيحين ..

فأما السكون ففي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال: **(اسكنوا في الصلاة)**[1].

وأما الإطراق والتذلل بخفض الرأس وإنزال العينين في الصلاة ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: **(«ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلىٰ السماء في صلاتهم؟!» فاشتد**

---

(١) صحيح مسلم (٤٣٠).

قوله في ذلك، حتىٰ قال: «لينتهُن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم»)[1].

وكثير من الناس إذا سمع السكينة والخشوع في الصلاة لا يقع في خاطره إلا تخيل الخشوع في القيام والتقيد بعدم الحركة .. ويغفل عن لحظات من أكثر هيئات الخشوع بهاء وجلالًا .. وهي التي تنفح هالة الإيمان حول المصلي .. وفيها من ذوق الأدب أمام الله ما تتطامن له القلوب .. وهي **«لحظات الانتقالات بين الأركان»** رفعًا وخفضًا بتمهّل وتؤدة ووقار .. فما أكثر ما ترىٰ مصليًا يهجم مبعثرة أطرافه إلىٰ السجود .. كأنما يرتمي منهكًا .. ويتقافز قائمًا كأنما هو محلول من عقال .. ويركع كجارح يخطف طعامه مستوفزًا عجلان ..

ومما يغفل عنه كثير من المصلين من هيئات الخشوع والسكينة لحظات «رفع اليدين بالتكبير وإنزالهما» .. فتراه يستعجل ولا يتئد في رفع يديه بالتكبير وخفضهما .. ويلقيهما شعثًا مجنحات بنزق .. ولا يتحرىٰ بهما بلوغ أذنيه أو منكبيه .. ولا يعود بهما برفق إلىٰ صدره .. والذي عظّم الصلاة إن لسكينة التكبير فخامة تلتقط الأنفاس .. ولعلك تتذكر كيف وصف البزار صلاة ابن تيمية حين قال: **«وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام»** ..

---

(١) صحيح البخاري (٧٥٠).

وهذه الحالة المتسرعة المنصلتة في انتقالات الصلاة ورفع اليدين بالتكبير شبّهها النبي ﷺ تشبيهًا تخجل منه صلواتنا التي يسابق المرء فيها نفسه .. بل الحقيقة أنه تشبيه مروّع مخيف .. لأن النبي ﷺ جعلها أحد مكونات «صلاة المنافق» ..

كم هي نتيجة مخيّبة أن يكتشف المرء نفسه يصلي منذ سنين صلاة تشبه صلاة المنافق؟! وهي «صلاة النقر» .. ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (**تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتىٰ إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعًا، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا**)[1] ..

هل تصدّق أنني من شدة الحرج اكتشفت أنني أغالط نفسي بلا شعور .. وأقول في داخلي لعل النبي ﷺ علّق وصف النفاق هنا علىٰ تأخير الصلاة لآخر وقتها .. كنت كأنني استعجل وأنا أقرأ قوله «فنقرها أربعًا» .. كأنني أتهرب من مواجهة الحقيقة .. ثم وجدت ابن تيمية يقرصني ويقول: (**فبيّن النبي ﷺ في هذا الحديث أن صلاة المنافق تشتمل علىٰ: التأخير عن الوقت الذي يؤمر بفعلها فيه، وعلىٰ النقر الذي لا يذكر الله فيه إلا قليلًا**)[2] ..

وأنا أقرأ هذا الحديث وشرحه لابن تيمية تذكرت صلواتي .. فتذكرت فورًا عبارة الفضيل بن عياض وهو يتضرع لله ويبكي ويقول

---

(١) صحيح مسلم (٦٢٢).

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، ص(١٥/ ٢٣٥).

مناجيًا ربه: **(واسوأتاه والله منك وإن عفوت)**[1].

إي والله يا أبا علي .. واخجلتاه من ربنا وإن عفا عنا .. وأي عمود للإسلام سنقدم به عليه؟! .. وماذا يغني الرواق والأطناب إذا كان «العمود» منخورًا من الداخل ..

وقد قمت مرةً وجردت أحاديث الصلاة في صحيحي البخاري ومسلم، وكنت أتأمل المعاني المسلكية وراء هذه الأحكام الفروعية، وهي تبلغ زهاء ثمانمئة حديث، وكم أبهرتني النتيجة إذ وجدت أن كثيرًا من هذه الأحكام الفروعية التي تضمنتها الأحاديث النبوية تسير بك رويدًا حتىٰ توقفك عند عتبات الخشوع وإطراقة السكينة ..

وسأستعرض بعض النماذج:

فأول خطوة في هذا الشأن هي في طريقة إنشاء وتصميم المسجد الذي سيصلىٰ فيه من الأساس .. فبرغم أن التزيين والتجميل فرع عن الاهتمام والتعظيم في الأصل .. إلا أن الشارع نهىٰ عن زخرفة المساجد لأنها تشغل المصلين، والخشوع أهم وأولىٰ .. وقد بوب البخاري في صحيحه فقال: **(باب بنيان المسجد وأمر عمر ببناء المسجد وقال: «وإياك أن تحمّر أو تصفّر فتفتن الناس» وقال ابن عباس: «لتزخرفنها كما زخرفت اليهود**

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٣٨٩٧).

والنصارىٰ»)[١] ثم روىٰ حديث ابن عمر الذي يدل علىٰ تواضع بناء مسجد رسول الله وهدوء مكوناته الإنشائية بما يبعث الوئام والسكينة للمصلي . .

ويكفي في هذا كله حديث إرجاع خميصة أبي جهم وإماطة قرام عائشة . . وهما مجرد أقمشة . . فكيف بأنواع الطلاء والزخارف والنقوش الصارخة التي ابتليت بها مساجد المسلمين اليوم . . كأنما تتحدىٰ المصلي بالتفنن في إغرائه وإذعانه لزينتها . . هل باني المسجد يريد أن يوصل رسالة للمصلين أنه بنىٰ المسجد من ملاءة لا من كفاف . . أم هو يتقرب لله علىٰ سنة نبيه؟

ثم إذا قام المسجد علىٰ الوصف النبوي المتواضع . . وصدح المؤذن وهم المصلي بالذهاب، ولكن سفرة الطعام قد انبعثت رائحتها الزكية فانشغل القلب المتضور، فقد أوصاه رسول الله ﷺ بأن يجلس ويكمل طعامه حتىٰ يفرغ باله ثم يقوم للصلاة منصبًا تفكيره علىٰ صلاته بخشوع . . ففي الصحيحين قال ﷺ **(إذا قُرِّب العشاء، وحضرت الصلاة، فابدؤوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب، ولا تعجلوا عن عشائكم)**[٢] . . وفي صحيح مسلم **(إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة، فابدؤوا بالعشاء، ولا يعجلن حتىٰ يفرغ منه)**[٣].

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٦).

(٢) البخاري (٦٧٢)، مسلم (٥٥٧).

(٣) صحيح مسلم (٥٥٩).

وهكذا في كل المشغلات وجّهنا النبي ﷺ للتخلص منها قبل أن نمضي للصلاة حتىٰ لا يخدش مقصود الصلاة الأعظم وهو الخشوع .. ومن ذلك ما في صحيح مسلم **(لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثان)**[1].

فإذا تخلص المؤمن من هذه المشغلات التي تقطع صفاء تفكيره في الصلاة وهمّ بالمضي للمسجد المتواضع الهادئ فقد نبّهه رسول الله ﷺ علىٰ نمط المشي وطريقة مد الخطىٰ كل ذلك تحصيلًا للسكون حتىٰ في طريق المشي للصلاة ذاتها! ففي الصحيحين قال ﷺ: **(إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون وعليكم السكينة)**[2] ..

بل نص رسول الله ﷺ علىٰ الاحتشام بعباءة الوقار أثناء المشي للصلاة فقال ﷺ: **(إذا سمعتم الإقامة، فامشوا إلىٰ الصلاة وعليكم بالسكينة والوقار)**[3].

والحقيقة أن التحليل الذهني الصرف قد يرىٰ أن الاستعجال في المشي للصلاة يظهر منه معنىٰ المسارعة للخيرات .. ولكني النبي ﷺ نبّه لخلاف ذلك .. فالاستعجال في المشي للصلاة تثور معه الأنفاس وتضطرب الأصوات وتتشوش معه السكينة .. سواء سكينة الماشي للصلاة أو سكينة المأمومين بسبب ضجيج الأصوات

---

(١) صحيح مسلم (٥٦٠).

(٢) البخاري (٩٠٨)، مسلم (٦٠٢).

(٣) البخاري (٦٣٦)، مسلم (٦٠٢).

خلفهم .. ولذلك ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة (**بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ، فسمع جلبة، فقال: «ما شأنكم؟» قالوا استعجلنا إلىٰ الصلاة، قال «فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم السكينة»**)[1].

فإذا كان كل هذا الاهتمام بالسكينة في «المشي» للصلاة فكيف في «الصلاة» ذاتها؟!

وحين يتقدم المؤمن للمسجد قبل الإقامة فيتنفل ويدعو ويتلو شيئًا من القرآن .. ثم يهتف صوت المؤذن بالإقامة .. فإن بعض الناس يختلج بحركات مفاجئة بلا تؤدة .. وقد نبّهنا رسول الله ﷺ حتىٰ في هذا الموضع وهو مجرد قيام من الصف للصلاة أن نقوم بسكينة .. ففي البخاري: (**إذا أقيمت الصلاة، فلا تقوموا حتىٰ تروني وعليكم بالسكينة**)[2] ..

ثم قبل أن يكبر المصلي إمامًا أو منفردًا فقد ندبه النبي ﷺ لوضع سترة تحجز نظر المصلي لتحفظ عليه خشوعه وترد بصره لئلا يتفلت في الوسط المحيط .. فإن النفوس إذا لم توضع لها حدود استرسلت .. وصارت كل خطوة من التفسح البصري ترقّق ما بعدها .. وحاجة النفوس للحدود عام في الطعام والسماع والكلام والنظر ونحوها من موارد الحس ..

---

(١) صحيح مسلم (٦٠٣).

(٢) صحيح البخاري (٦٣٨).

وقد صلىٰ النبي ﷺ إلىٰ الجدار والراحلة ومؤخرة الرحل والحربة والعنزة وكل ذلك في الصحيحين، ولذلك صار الصحابة شديدي الحرص علىٰ السترة .. وفي البخاري عن أنس بن مالك قال: (**لقد رأيت كبار أصحاب النبي ﷺ يبتدرون السواري عند المغرب**)[١].

وغلّظ النبي ﷺ تغليظًا شديدًا في المرور بين المصلي وسترته لأن المارّ يبلبل وحل الدنيا بعد أن صفىٰ ماء المناجاة .. ولذلك ففي الصحيحين قال ﷺ: (**لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه، لكان أن يقف أربعين خيرا له، من أن يمر بين يديه**)[٢] ..

بل أمر النبي بما هو فوق ذلك كله كما في الصحيحين أنه قال: (**إذا صلىٰ أحدكم إلىٰ شيء يستره من الناس، فأراد أحد أن يجتاز بين يديه، فليدفع في نحره فإن أبىٰ فليقاتله، فإنما هو شيطان**)[٣].

فتمعن بالله عليك في عظمة أحكام «سترة المصلي» وما جاء فيها من الأحاديث في الصحيحين .. ثم استحضر أن كل هذه الأحكام النبوية رعاية لجناب «الخشوع» .. وحفظًا لمقام السكينة والإخبات في الصلاة .. وردًا لتفلت البصر ..

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٣)، صحيح مسلم (٨٣٧).

(٢) صحيح البخاري (٥١٠)، صحيح مسلم (٥٠٧).

(٣) صحيح البخاري (٥٠٩)، صحيح مسلم (٥٠٥).

فإذا انتهىٰ المؤمنون من بناء مسجدهم الوديع في تصميمه .. وفرغوا من المشغلات من الطعام وحاجات الخلاء .. ومشوا للصلاة بسكينة .. وسمعوا الإقامة فقاموا للصف بسكينة أيضًا .. ثم كبروا بين يدي الله .. فإن بقاء يدي المصلي بعد التكبير مرسلتين حرّتين تهيجهما للحركة والتجول بين أعضاء الجسم .. فشرع النبي تقييدهما ببعضهما علىٰ الصدر .. لاعتقال بواعث العبث .. كما في حديث وائل بن حجر في صفة صلاة النبي ﷺ **(ثم وضع يده اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ)**[1].

وهذا الفهم لحكمة «وضع اليدين علىٰ الصدر» شائع بين العلماء، قال النووي: **(قال العلماء والحكمة في وضع إحداهما علىٰ الأخرىٰ أنه أقرب إلىٰ الخشوع ومنعهما من العبث)**[2].

ثم تمعّن أيضًا كيف نهىٰ عن ضم الثياب والشعر في الصلاة لما في تركهما من كمال الأدب والإخبات بسجود الشعر، وفي كفهما انشغال، ففي الصحيحين **(ولا أكف ثوبًا ولا شعرًا)**[3]، ولذلك شبّه النبي ﷺ من يصلي معقوص الشعر بأنه مثل مكتوف اليدين، أي أنه لا تمس يده الأرض، كما في صحيح مسلم قال ﷺ: **(إنما مثل هذا، مثل الذي يصلي وهو مكتوف)**[4]، وقد

(١) صحيح مسلم (٤٠١).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، تحقيق خليل الميس، دار القلم، ص(٤/ ٣٥٨).

(٣) صحيح البخاري (٨١٦)، صحيح مسلم (٤٩٠).

(٤) صحيح مسلم (٤٩٢).

قال ابن تيمية (**والمعقوص لا يسجد شعره**)[1]، وهو مأثور عن ابن مسعود، والمعقوص والمكتوف كلاهما مشدودان للخلف.

ثم تدبّر كيف نهىٰ النبي ﷺ عن تسوية محل السجود إلا بأقل حركة، ففي الصحيحين عن معيقيب (**أن رسول الله ﷺ قال في الرجل يسوي التراب حيث يسجد: «إن كنت لا بد فاعلًا فواحدة»**)[2].

ثم تبصّر في سنة الإبراد المذكورة في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: (**إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة**)[3]، كل ذلك دفعًا لتأذي الجسد بآثار حرارة الطقس، ليكون أجمع للقلب فلا يتشتت، فانظر كيف أثّر طلب «الخشوع» في تغيير وقت الفضيلة في الصلاة!.

وبرغم أن الأصل أن يكون السجود علىٰ الأرض، ولا يسجد المصلي علىٰ حائل متصل به، لكن مع الحر شرع الشارع السجود علىٰ «الثوب» ففي الصحيحين عن أنس (**كنا نصلي مع رسول الله ﷺ في شدة الحر، فإذا لم يستطع أحدنا أن يمكن جبهته من الأرض، بسط ثوبه، فسجد عليه**)[4] وقال ابن حجر منبّهًا علىٰ خلفيات هذا الحكم: (**وفيه مراعاة الخشوع في الصلاة لأن الظاهر أن صنيعهم**

---

(١) ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(٢٢/ ٤٥٠).

(٢) صحيح البخاري (١٢٠٧)، صحيح مسلم (٥٤٦).

(٣) صحيح البخاري (٥٣٦)، صحيح مسلم (٦١٥).

(٤) صحيح البخاري (١٢٠٨)، صحيح مسلم (٦٢٠).

ذلك لإزالة التشويش العارض من حرارة الأرض)[1].

ولأن جوهر «الخشوع» الذي تدور حوله أحكام الصلاة هو أن يعقل الإنسان صلاته ويحيا معاني أذكارها ويستشعر روح هيئاتها، فإن النبي ﷺ لم يقل للناعس: اذهب وجدد بالماء نشاطك، بل قال له: «اذهب ونم»! فنهىٰ الناعس عن مواصلة الصلاة لفوات المقصود الأصل وهو عقل المعاني، ففي البخاري أن النبي ﷺ قال: **(إذا نعس أحدكم في الصلاة فلينم، حتىٰ يعلم ما يقرأ)**[2].

ولأن المساجد قد تغشاها النساء أحيانًا للصلاة فقد شرع النبي ﷺ لهن أحكامًا تنتهي كالعادة بالمطلوب الأجل وهو منع كل ما يشوش «الخشوع» .. فندب لمباعدة المسافة بين مواضع صلاة كل جنس منهما .. فجعل أفضل صفوف الرجال هو الصف الأول، وبالمقابل جعل أفضل صفوف النساء هو الصف الأخير! فصارت فضيلة الصف لها نوع ارتباط بكمية المسافة بين الجنسين في المسجد ..كما قال: **(خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها)**[3].

ونهىٰ النبي ﷺ المرأة أن تخطو للمسجد وقد تبللت بعطوراتها فقال: **(إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبًا)**[4] .. بل

---

(١) ابن حجر، **فتح الباري**، تحقيق محب الدين الخطيب، دار الريان، ص(١/ ٥٨٨).
(٢) صحيح البخاري (٢١٣).
(٣) صحيح مسلم (٤٤٠).
(٤) صحيح مسلم (٤٤٣).